

**مالك بن نبي مفككا أزمة العالم الإسلامي****Malik bin Nabi dismantled the crisis of the Islamic world**الصادق بوقرة<sup>1</sup><sup>1</sup> جامعة الجزائر 02، (الجزائر)، sadekboubagra142@gmail.com

تاريخ النشر: 2019.03.31

تاريخ القبول: 2020.03.23

تاريخ الاستلام: 2020.02.10

**ملخص**

إشتغل مالك بن نبي كثيراً على المنهج بوصفه عاملاً محورياً ومهماً، وما دفعه إلى ذلك ما لاحظته من قصور في هذا الجانب، إذ وعلى الرغم من المجهودات الكبيرة التي قدمها العقل العربي والإسلامي إلا أنها بقيت ظلت تراوح مكانها، والسبب هو الافتقار للمنهج. لذلك نجده يوجه الانتقادات للآراء والبحوث التي كانت تتجه لدراسة الآخر من أجل فهم ذاتها، فمثل هذه الطريقة بدت له على أنها غير سليمة وغير مناسبة وغير عقلانية و الطريقة المنهجية والصحيحة تكون عن طريق تشخيص الأسباب الحقيقية لهذه الأزمة ومحاولة إيجاد العلاجات والحلول المناسبة، من خلال تأكيده على ضرورة البحث عن حلول كلية شاملة، وهذا طبعاً من خلال نظرية متكاملة، وليس عقل جزئي يطرح قضية أخلاقية أو سياسية أو اجتماعية. بل معالجة كل هذه القضايا في وحدة واحدة. ولهذا يمكن القول أن طريقة تفكير مالك بن نبي تختلف اختلافاً تاماً إن لم نقل جذرياً عن المفكرين الذين اشتغلوا على سؤال النهضة. ولا يقترب منه في تاريخنا كعرب ومسلمين إلا العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، وهذا طبعاً من خلال نظريتهما الكلية للظواهر الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، وربما حتى في الطريقة العلمية إلى حد ما في معالجة هذه الظواهر. كلمات مفتاحية: عقل كلي- الأزمة- التشخيص- النظرية- العلاج

**Abstract**

Malik bin Nabi worked very hard on the curriculum as a pivotal and important factor, and this led him to notice the shortcomings in this aspect. Despite the great efforts made by the Arab and Islamic mind, it remained in place and the reason is the lack of methodology. Therefore, we find criticism of the opinions and research that were going to study the other in order to understand itself, such a method seemed to him to be inappropriate and irrational and the methodical and correct method is by diagnosing the real causes of this crisis and try to find appropriate remedies and solutions, On the need to search for comprehensive solutions, and this, of course, through an integrated theory, not a partial mind raises a moral issue, political or social. but to address all these issues in one unit. It is therefore possible to say that Malik bin Nabi's mind is completely different if not radically transferred from the thinkers who worked on the question of the Renaissance. And it is not close to us in our history as Arabs and Muslims except the mark Abdul Rahman Ibn Khaldun, and this is, of course, through their holistic view of social phenomena, political and moral, and perhaps even in the scientific way to some extent in the treatment of these phenomena.

**Keywords:** Total mind - crisis - diagnosis - theory - treatment<sup>1</sup> المؤلف المرسل: الصادق بوقرة، الإيميل: sadekboubagra142@gmail.com

## مقدمة

كان للحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت على مصر والشام عام 1798 م أثر على وعي العالم العربي والإسلامي بنفسه، وهذا الأثر يمكن أن نلمسه في جانبين، أما الأول فقد كان بمثابة صدمة حقيقية تعرض لها العقل العربي والإسلامي، نتيجة وقوفه على منجزات الحضارة الغربية، في مقابل واقعه والأقل ما يقال عنه أنه كان مفلساً من نواحٍ عديدة. أما الثاني فكان تأثيره مضاعفاً، وكان نتيجة احتكاك المثقفين العرب والمسلمين بطريقة مباشرة - عن طريق البعثات العلمية- بمنجزات الحضارة الغربية، وما تبعها من تجديد وتحوير في العديد من أنماط الحياة، والتي غيرت وجه العالم الغربي، العالم الغربي المتفتح على آفاق ورؤى وتطلعات جديدة.

هذا الوضع الجديد الذي فرض نفسه على العالم الإسلامي أحدث فيه رجّة، فكان أن حرك أطرافه، بل وقصّ مضجعه، فكان أن هبّ للانتصار لنفسه ومحاولة إعادة بناءها، وتجسد ذلك من خلال العديد من المشاريع الفكرية والإصلاحية النهضة، والتي حملت على عاتقها مهمة تحقيق الإقلاع واللاحاق بالركب ( مالك بن نبي، وجهة العالم الاسلامي، 1986 ص 48). ومنذ ذلك الحين وعلى امتداد قرن أو ما يقرب القرنين وهذه الأطروحات والمشاريع تحاول إيجاد إجابة للسؤال التالي: كيف يمكن تغيير هذا الوضع من أجل اللحاق بالركب ؟ وتبعاً لذلك برزت اتجاهات عديدة، منها من دعا إلى الاستناد إلى الفكر الغربي كأساس منهجي يساعد العقل العربي والإسلامي على الخروج من محنته الفكرية، في حين آمن غيره بالموروث العربي والإسلامي بوصفه الأساس الذي ينبغي الانطلاق منه في سبيل الحفاظ على الهوية العربية، وتجنب إمكانية انسلاخه عن عاداته، تقاليده، خصوصياته، وبقي الأمر على هذا الحال حتى بدايات العقد السابع من القرن الماضي، وبالضبط منذ نكسة حزيران (الحرب مع اسرائيل) والتي نحا معها السؤال منعى جديد، فانتقل من طرح السؤال إلى الاشتغال على السؤال نفسه، ومنه بدأت حقبة جديدة، طرحت سؤال: لماذا فشل مشروع النهضة ؟

الفيلسوف والمفكر الجزائري "مالك بن نبي" (1905-1973م) الموافق لـ (1323 هـ-1393 هـ) والذي هو محور بحثنا، كان من بين عدد من المفكرين الذين اشتغلوا على الموضوع وذلك من خلال تقديمه لطروحات، تُحلل وتشرح الوضع الذي هو فيه العالم الإسلامياً والذي انتهى إليه. وكان ذلك من خلال عدد من الكتب والتجُمعت تحت مسمى "مشكلات الحضارة".

مالك بن نبي من خلال كتبه يمكن أن نُقسمه إلى قسمين أو يمكن معالجته من خلال شقين : الشق الأول مالك بن نبي بوصفه ناقد والشق الثاني بوصفه مُؤسس. ولقد ركزنا كل جهدنا واهتمامنا أثناء تناول فكره بشقيه على محاولة معالجته والاقتراب منه من خلال سؤال "المنهج". خاصّة من خلال مؤلفه الرئيس " شروط النهضة ". حيث حاولنا قدر المستطاع، تحليله، توضيحه، إبراز أهميته، البحث في مدى مشروعيته. كل ذلك من خلال طرحنا للإشكال التالي:

كيف حلّ مالك بن نبي مقولات طروحات ومشاريع النهضة العربية والإسلامية ؟ وما هي الأدوات المنهجية التي استعملها في هذا التحليل ؟ ثم ماهي أهم الإضافات المنهجية والمعرفية التي احتواها مشروعه الحضاري ؟ وإلى أي مدى وفق بن نبي في ذلك ؟ لنختم بمناقشة مشروعه الحضاري من خلال واقعنا كعرب وكمسلمين اليوم. وللإجابة على هذه الاشكالية ارتأينا كخطوة منهجية أن نمر عبر النقاط التالية:

- سؤال النهضة في العالم الإسلامي.
- نقد بن نبي للمفكرين العرب والمسلمين في مسألة المنهج.
- سؤال النهضة في فكر مالك بن نبي.
- مالك بن نبي وسؤال المنهج.
- كيف نتجاوز أزمة حضارة العالم الاسلامي من منظور بن نبي ؟.
- كيف تُصنع الحضارة ؟.
- سنن التاريخ.
- أطوار الحضارة.
- أسس قيام الحضارة.
- كيف تفاعلت الأمة مع مشروع مالك بن نبي ؟
- قراءة في المشروع الحضاري لمالك بن نبي.

#### 1. سؤال النهضة في العالم الإسلامي.

"ظلّ العالم الاسلامي خارج التاريخ دهرًا طويلا كأن لم يكن له هدف، استسلم المريض للمرض وفقد شعوره بالألم ، حتى كأنه يُؤلف جزء من كيانه...وقبيل ميلاد هذا القرن سمع من يُذكره بمرضه، ومن يُحدثه عن العناية الإلهية التي استقرت على وسادته، فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ولديه الشعور بالألم، وبهذه الصحوّة الخاصّة تبدأ بالنسبة للعالم الاسلامي حقبة تاريخية يطلق عليها النهضة. ولكن ما مدلول هذه الصحوّة ؟ (مالك بن نبي ، 1986، شروط النهضة، ص40).

هكذا ابتدأ مالك بن نبي مشروعه، ولا يبدو من كلامه أنه كان مقتنعا كثيرا بهذه الصحوّة . ولو كان مقتنعا لما طرح سؤال: مدلولها ؟

قبل الحديث عن مدلول الصحوّة، ولضرورات منهجية ارتأينا طرح السؤال التالي: ما هي هذه الصحوّة، وماهي أهم الأسس والمبادئ التي قامت ؟.

يمكن الحديث عن الصحوة من خلال ثلاث اتجاهات رئيسية، سنحاول أن نذكرها باختصار:

### 1.1 الاتجاه العلماني:

ويمكن أن نحدد فيه شقان: الأول: يمثله تيار تغريبي وضعي سلك الطريق الذي سلكه الغرب انطلاقاً من قناعاته بأن الحداثة الغربية بما تحمله من نظريات وأفكار تُشكل نموذجاً شاملاً للخروج من الأزمة التي تعاني منها الشعوب، ومن أبرز أتباع هذا التيار شبلي شميل (1276 هـ - 1335 هـ / 1850 - 1917 م) (ألبرت حوراني، 1986، ص 297)، الذي نظر للعلم بوصفه مفتاح لحل لغز الكون، بل ذهب إلى أكثر من ذلك إذ اعتبره نوعاً من العبادة؛ أما الثاني فقد سعى إلى محاولة التوفيق ما بين الإسلام والفكر الغربي، من خلال إيمانه من جهة بأن التقدم العلمي والثقافة المعاصرة يستلزمان إعادة صياغة التعاليم الدينية التقليدية بناءً على المفاهيم العلمية والفلسفية السائدة، وخير من عبّر عن هذا الرأي رفاة الطهطاوي، والذي آمن بأن الإصلاح لا يكون إلا بتبني بعض صيغ المجتمع الأوروبي (ألبرت حوراني، 1986، ص 89).

### 2.1 التيار الإصلاحي الديني:

من أبرز دعاة هذا التيار جمال الدين الأفغاني (1838 - 1897)، محمد عبده (1266 هـ - 1323 هـ / 1849 م - 1905 م)، الأفغاني الذي اعتقد أن هناك خطرين يهددان العالم الإسلامي، الأول خارجي يتمثل في الاستعمار الغربي ونزعت المتجهة للسيطرة على العالم الإسلامي، والآخر داخلي يتمثل بالانحطاط، التخلف واستبداد الحكم، وعليه دعا الأفغاني إلى تحرير الفكر الديني من قيود التقليد، وفتح باب الاجتهاد، ليتخلص المجتمع الإسلامي من الجمود والتقليد الأعمى الذي لا يتلاءم مع روح العصر، كما طالب بدستور يحد من استبداد الحاكم، كان الأفغاني بمثابة مُنور حيث كان من اسهاماته أن حثّ وشجّع على الكتابة وإصدار الصحف وتكوين رأي عام. (ألبرت حوراني، 1986 ص 138). وفي نفس السياق دعا محمد رشيد رضا 1354/1282 هـ / 1865-1935 م. إلى الابتعاد عن الجمود والتقليد الأعمى، لما يمثله من خطر على المجتمع الإسلامي، ونادى بضرورة إجراء تعديلات في الشريعة الإسلامية، من خلال مجلة المنار والتي كان يكتب فيها من القاهرة التي قَدِم إليها من سورية في عام 1898، وتعد مجلة المنار ومنذ تأسيسها منبراً للإصلاح والدعوة، فعن طريقها كان يُفرغ تأملاته الروحية ويشرح من خلالها رؤيته لمذهب إسلامي جديد مفهوم من قبل الجميع ويكون أكثر تلاؤماً مع تطورات العصر. (ألبرت حوراني، 1986، ص 272)

### 3.1 الاتجاه الإصلاحي التوفيقي :

وفي مقابل هذين الموقفين المتضادين خرج الإصلاحي التوفيقي الذي نادى بضرورة التوفيق بين منجزات الحضارة الغربية مع الحفاظ على خصوصيات البيئة العربية الإسلامية وذلك عن طريق إيجاد الطريقة التي تلائم العالم الإسلامي وتفيده دون أن تتناقض مع المسلمات الإيمانية والمثل الأخلاقية. لتأتي نكسة حزيران كما ذكرنا أنفاً عام 1967م لتؤكد انتكاس الخطاب الفكري العربي، فتدخله في دوامة جديدة. دوامة ازدواجية التي أصبحت تطبع حياته بجميع مرافقها الفكرية والمادية، ازدواجية الأصالة والمعاصرة، التراث والحداثة، التوفيقية والراديكالية (محمد الجابري، 1990، ص 19).

## 2. نقد بن نبي للمفكرين العرب والمسلمين في مسألة المنهج.

في تحليله النقدي لمشاريع وأطروحات النهوض التي أنتجها الفكر الإسلامي - بدءاً من الأفغاني، والذي يعتبره مالك ضمير العالم الإسلامي في القرن الماضي وهو الذي يقول عنه في كتابه شروط النهضة: " ففي هدأة الليل وفي سبات الأمة الإسلامية العميق انبعث من بلاد الأفغان صوت ينادي بفجر جديد، صوت ينادي: حيّ على الفلاح! فكان رجعه في كل مكان، إنه صوت ( جمال الدين الافغاني ) مُوقظ هذه الأمة إلى نهضة جديدة، ويوم جديد" ( مالك بن نبي، 1986 شروط النهضة، ص21)- يُقدم ابن نبي ملاحظات منهجية من خلال تبيان أنه أن مختلف تيارات الفكر النهضوي على تنوعها واختلافها لم تحاول حقيقة معالجة المرض، وإنما وظفت كل جهودها لمحاولة إيجاد العلاج للأعراض أو النتائج.

كيف ذلك ؟

في الخمسين سنة الأخيرة من القرن الماضي كما يقول بن نبي فيها الكثير من الدراسات والمقالات والصحف والمؤتمرات التي تتصل بموضوع النهضة، لكن مثل هذه الدراسات كانت شتاتاً متفرقاً، فهي على سبيل المثال تعالج الاستعمار والجهل هنا، والفقر والبيؤس هناك، وانعدام التنظيم واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى لكن ليس فيها البتة تحليل منهجي، أي دراسة مُرضية للمجتمع الإسلامي، بحيث لا تدع مجالاً للشك والظن حول المرض الذي يتألم منه منذ قرون. إن معظم الآراء إن لم نقل كلها، كانت تتناول سؤال النهضة وفق مزاجها أو مهنتها، فرجل سياسة كجمال الدين الأفغاني اعتقد أن المشكلة سياسية، وبالتالي لا بد أن تُحل بوسائل سياسية، أما رجل دين مثل محمد عبده فقد رأى أن المشكلة دينية ولا يمكن أن تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ... ومثل هذا التشخيص طبعاً لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه ( مالك بن نبي، شروط النهضة 1986، ص40). " وقد نتج عن هذا كله أنهم منذ خمسين عاماً لا يعالجون المرض وإنما يعالجون الأعراض، لذلك كانت النتيجة قريبة من تلك التي يحصل عليها طبيب يواجه حالة مريض بالسل الجرثومي فلا يهتم بمكافحة الجراثيم، وإنما يهتم بهيجان الحى عند المريض، والمريض نفسه يريد منذ خمسين عاماً أن يرى من آلام كثيرة من الاستعمار، من الأمية، من الكساح العقلي" ( مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص41).

## 3. سؤال النهضة في فكر مالك بن نبي.

خصّص مالك بن نبي لإشكالية النهضة كتاباً كاملاً (شروط النهضة)، حاول من خلاله معالجته بمفاهيم ومنظورات مختلفة عن الكتابات التي سادت قبله. وهذا ما يتضح من خلال الإطار العام الذي جاء فيه كتابه " شروط النهضة"، إذ كانت البداية بانتقاده للآراء التي كانت تتجه لدراسة الآخر من أجل فهم ذاتها، فمثل هذه الطريقة غير سليمة وغير مناسبة بل وغير عقلانية، والطريقة المنهجية والصحيحة تكون بتشخيص الأسباب الحقيقية للأزمة ومحاولة إيجاد علاجات وحلول مناسبة، أما القفز هنا وهناك فهذا لن نجني منه شيئاً.

هذا إذن هو الإطار العام لكتابه شروط النهضة وقد قسّمه إلى قسمين:

القسم الأول: الماضي والحاضر: حاول فيه تشخيص المرض (وضع يده على أسباب التخلف)

القسم الثاني : المستقبل: وضع فيه الأفكار الجينية الأولى والتي تحولت فيما بعد إلى كتبه والتي تقرأ كلها في ضوء بعضها البعض)

الملح العام أو السياق الذي أراده بن نبي لكتابه هو أن يكشف الغطاء عن العقل الإسلامي، إن كتابه شروط النهضة دعوة صريحة للبحث عن حلول كلية شاملة من خلال نظرية متكاملة، وليس عقل جزئي يطرح قضية أخلاقية أو سياسية أو اجتماعية. بل معالجة كل هذه القضايا في وحدة واحدة.

#### 4. مالك بن نبي وسؤال المنهج

لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ والذي طرحه شكيب أرسلان (1869-1946) يعد أهم سؤال طرح في القرنين الماضيين - ذلك أنه في نظر الباحث يُعبر أو يحوي جميع الأسئلة التي طرحت منذ حملة نابليون بونابرت، من قبل المفكرين العرب والمسلمين؛ وكلنا نعرف الظروف التي طرح فيها هذا السؤال- ومنذ ذلك اليوم وحتى وقت قريب والسؤال نفسه لا يزال يُطرح، فقط بصيغ مختلفة والسبب، لم تكن هناك إجابات واضحة ومُقنعة تقطع الشك باليقين، والتي يمكن أن ترسم طريق العمل، بل يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك حين نقول أننا لا نزال أمامه في الحيرة نفسها التي كنا نقف بها أمامه عندما طرح لأول مرة بدايات القرن الماضي (زكي محمود، 1971، ص 09).

في المؤتمر الإسلامي والذي عقد بالجزائر في عام 1968 وفي محاضرة ألقاها مالك بن نبي، عرّج المفكر الجزائري على مثل هذا السؤال وحاول أن يقوم بعملية تفكيك وتحليل لهذا السؤال، وما دفعه إلى هذا طبعاً أمران يرتبط الواحد منهما بالآخر، الأول : الإجابة على سؤال شكيب أرسلان (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم)؛ أما الثاني - والذي إذا أجبنا عنه نكون قد قطعنا شوطاً نحو الإجابة على سؤال شكيب أرسلان- هو الإجابة على سؤال كان الكل يبحث له عن إجابة في ذلك الوقت وربما حتى اليوم... وهذا السؤال هو : لماذا فشلنا في الإجابة على مثل هذا السؤال (لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟)

يُعقب مالك بن نبي على هذا السؤال فيقول : لماذا عجزنا عن تحقيق نهضتنا وتجاوز أزمته؟ ما السبب في ذلك؟ هل يعد القصور عقلياً ! أم هو مركب نقص ! أم أن خلفنا سنة كونية ! أم عدم إدراكنا لسنن الله الكونية؛ وعدم اعتبارنا منها ! أم ذلك كله ؟

إن إعادة طرح وتفكيك وتحليل السؤال من مالك بن نبي، يتضمن منطقياً الإقرار بأننا حتى تلك اللحظة كنا قد فشلنا في الإجابة على هذا السؤال، والفشل سببه الرئيس من دون شك حسبه: أن السؤال الذي طُرح ليس في محله إذ لابد من طرح سؤال : كيف نعيد بناء حضارة، أو كيف نتجاوز أزمته الحضارية بوصفه السؤال الأصح والأنسب.

إن إعادة طرح وتفكيك السؤال يؤكد بلا مجال للشك أيضاً أن المشكلة ليست في قصور أذهاننا وإنما المشكلة كلها في الطريق أو المنهج الذي سلك، فالمشكلة ترتبط أساساً بالمنهج. لأن طرح سؤال كالذي طرحه شكيب أرسلان وغيره يقودنا إلى البحث في الحضارة الغربية، ويُشبه مالك بن نبي الذي يريد أن يتجه للغرب من أجل إيجاد حلوله، بخرافة من يريد من سجنائه أن يعطيه مفاتيح سجنه. (مالك بن نبي، مفهوم الحضارة والنهضة،

[[www.youtube.com/watch?v=RLGkpir4YM](http://www.youtube.com/watch?v=RLGkpir4YM))]

## 5. كيف نتجاوز أزمة حضارة العالم الاسلامي من منظور بن نبي؟

في معرض حديثه عن أزمة العالم الاسلامي يُورد بن نبي ملاحظة وهي مهمة مفادها: أن أزمة الحضارة لا تتعلق فقط بالعالم الاسلامي، بل إنها تَمَس الشعوب المتقدمة نفسها والتي تهدد مدينتها بالفناء والسبب في ذلك أن الحضارة الغربية لم تقم على أسس سليمة ودعائم متينة (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 57).

من أجل تجاوز أزمة العالم الاسلامي، ينبغي بداية أن ننق في أنفسنا أولاً وأن نكون صادقين معها وذلك من خلال القيام بعملية مراجعة وتحليل للطريق الذي سلك، والغاية الوقوف على المرحلة التي قطعناها، والمرحلة التي نحن فيها، من أجل دراستها، فهمها، إعادة صياغتها، تقويمها أو تعديلها. (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 41).

إن الواجب يفرض علينا أن لا نتوقف أبداً عن السير الحثيث نحو الحضارة الأصيلة مهما وقعنا في الأخطاء، لا بد أن تتوافر الإرادة كعامل أولي، وأن لا نفشل، إن الحياة تدعونا لأن نسير دائماً إلى الأمام مهما وقعنا في الأخطاء، ينبغي أن لا يقف ركودنا أمامنا كعائق، فيمنعنا من التفكير في أزمئتنا، لا ينبغي أن يتكوّن لدينا مركب نقص، فالمرحلة التي نحن فيها لا غرابة فيها وليست بدعاً في التاريخ، إن هذا أمر طبيعي للغاية، فالأمور الطبيعية تجري مجراها الطبيعي كما أرادتها سنة الله في الكون، فقط علينا أن ننتبه إلى أخطائنا، وأن لا يظل سيرنا نحو الحضارة سيراً فوضوياً، بل لا بد أن يكون سيراً علمياً عقلياً، وذلك عن طريق فهم الأسس والمقومات التي تنبني عليها أي حضارة (مالك بن نبي، شروط النهضة 1986، ص 159). إن من يريد إنجاز حضارة، يجب عليه معرفة الكيفية التي تصنع بها الحضارة، يجب جمع الشتات والأجزاء والتحضير لنقطة انطلاق سليمة يمكن الارتكاز عليها، ينبغي توحيد الجهود في سبيل السير نحو الحضارة .

### 1.5 كيف تصنع الحضارة حسب بن نبي ؟

الحضارة تنجز في التاريخ ولا تنجز في المختبرات، المخبر الوحيد هو مخبر التاريخ، التاريخ بعاداته، بتقاليده، بعقائده، بنمط تدينه، بثقافته، بأخلاقه، بسياساته، بمخيلته، بجميع شتاته، هو زاد الحضارة، إن في تأمل التاريخ وفهمه، فهم للحاضر وبناء للمستقبل، فالحضارة ماض وحاضر ومستقبل، وليست مرحلة مستقلة أو موضوعاً جاهزاً نقتطعه أو نستورده فنلبسه، إن الأخطاء التي وقع فيها العالم الاسلامي بلا شك ناتجة عن إهمال دراسة التاريخ، إن في إغفاله جهل للنقطة التي منها نبدأ، ومن هذا الخطأ يخرج من دون شك القطار عن السكة الصحيحة (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 47). لا مناص إذن من دراسة وفهم تاريخنا وكمسلمين، إذ لا يعقل أن نتجه للآخر من أجل فهم أنفسنا، لكل تاريخه وظروفه وسياقاته. لكن هذا لا يعني أن نقع في التطرف من جهة أخرى فهمل دراسة الغرب، فالغرب يمثل ظاهرة العصر الحضارية من نواحٍ معينة، بل هو واقع تاريخي على المسلم أن يعرف كيف يُعايشه، لكن الذي لا ينبغي أن يغيب عن المسلم ما يمثله الغرب في واقعه، فينظر إليه باعتباره قدوة ويرجع إليه باعتباره مصدراً، (مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، 1986، ص 64) وهذه هي مشكلة العالم الإسلامي من بداية الصحوة، إذ لم يفكر بهدوء، من خلال بحثه عن أسس وميكانيزمات بناء الحضارة في سعيه نحو بعث حضارته، بل بدا وكأنه كان يفكر بقلق وتحت الصدمة، فكان أن دخل الصيدلية تحت وطأة الألم دون أن يدرك مرضه على وجه

التحديد، إن سلوك مثل هذا الطريق عواقبه غير مأمونة " بل ستكون نتيجته الحتمية أنه سيذهب بمحض الصدفة لكي يقضي على المرض أو يقضي على نفسه. هذا هو شأن العالم الإسلامي، دخل صيدلية الحضارة الغربية طالباً الشفاء لكن من أي مرض؟ وبأي دواء! ذلك هو السؤال المطروح " (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 41).

## 2.5 سنن التاريخ :

إن المتأمل للأشياء من الوجهة الكونية يرى أن الحضارة تسير كما تسير الشمس فكأنها تدور حول الأرض مشرقة في أفق هذا الشعب ثم متحولة إلى أفق شعب آخر " (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 49). ومن الملاحظات الاجتماعية أيضاً أن للتاريخ دورة وتسلسلاً فهو تارة يُسجل للأمة مآثر عظيمة وتارة أخرى يلقي عليها دثارها يسلمها لنومها العميق، وإذا ما أخذنا هذه الملاحظة بعين الاعتبار تحتم علينا في حل مشكلاتنا الاجتماعية أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ وأن ندرك أوضاعنا وما يعترينا من عوامل الانحطاط وما تنطوي عليه من أسباب التقدم، فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ سهّل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا " (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 47). وليس غريباً أبداً، ولن نتعجب عندما نجد القرآن الكريم يدعو المؤمنين إلى ضرورة التأمل فيما مضى من سير الأمم ويضرب الأمثال، كل هذا من أجل حقيقة واحدة وهي أن نكتشف الكيفية التي تتركب بها وعن طريقها الحضارة (مالك بن نبي، شروط الحضارة، 1986، ص 52).

## 3.5 أطوار الحضارة حسب بن نبي :

في تحليله لأطوار الحضارة الأسس والمعوقات، يشير مالك بن نبي إلى نقطة منهجية أثناء تناوله أزمة العالم الإسلامي متعلقة بالزامية معرفة كيف كان الوضع، وكيف صار إلى الحالة التي هو عليها الآن، أي معرفة كيف كان ماضيه، وكيف صار إلى الحالة التي هو عليها في عصرنا اليوم، لهذا نجده يُحلل ويُحاول أن يفهم ويُفهم المراحل التي مرّ بها المجتمع العربي الإسلامي أو الحضارة الإسلامية، منذ مرحلة الظهور وصولاً إلى مرحلة الأفول.

في كتابه شروط النهضة قدّم رؤيته للمراحل التي مرّ بها العالم الإسلامي من خلال حديثه عن أطوار ثلاثة :

### 1.3.5 مرحلة الروح (من غار حراء إلى معركة صفين 38هـ)

وفيهما تمّ خروج الإنسان من الحالة الطبيعية، ودخوله في الحياة الاجتماعية حيث تمّ ضبط غرائزه الحيوانية، وإخضاعها لنظام أخلاقي دقيق، فواقع المسلمين في المراحل الأولى من بعد الدعوة تخلّله نوع من النهوض الحضاري الفكري والمادي القائم على الفكرة الدينية بالأساس، إذ تغيّرت النفس الإنسانية مُغيرة معها المجتمع من قانون الحالة الطبيعية وقوانينها إلى حالة جديدة قوامها قانون العقيدة " (مالك بن نبي، 1986، ص 52). وذلك من خلال معرفة الإنسان كمسلم لمبررات وجوده وغاياته المتمثلة في العبادة، عمارة الأرض والخلافة.

### 2.3.5 مرحلة العقل: (من معركة صفين إلى العصر الأموي والعصر العباسي الأول):

يُحدد بن نبي واقعة صفين عام 38هـ على أنها حد فاصل بين مرحلتين محورتين في تاريخ العالم الإسلامي، إذ كان الوضع السائد أن تقهقرت الروح وأفقدتها نفوذها في المجتمع وسيطرتها على الغرائز، وبرز تبدّل واضح وجلي في

القيم الأخلاقية، فكان أن حدث تقهقر في حركة العالم الإسلامي فتراجع دور الروح وبرزت سيطرة العقل ومنه بدأت المرحلة الثانية.

3.3.5 مرحلة الغريزة: (من العصر العباسي المتأخر، والعصور التي تلت عصر ابن خلدون) وهي عصور أظلم فيها ليل التاريخ على حضارة الروح المتقدمة فعالية وتوتر.

هذه هي أطوار الحضارة التي مرّ بها العالم الإسلامي، وهذه الأطوار لا تخصه وحده، بل إنها تحكم مسار وحركة أي حضارة، ولا تكاد حضارة ما تشذ عن هذه القاعدة" (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص54). "إن الحضارة تخضع لمنطق واحد، وهذا ما يثبته التاريخ، فالحضارة المسيحية مثلها مثل الحضارة الإسلامية تسير سيرها، قد يعترض معترض فيقول أن المسيحية سبقت الإسلام بمراحل زمنية، فلماذا لم تشهد حضارتها مبكراً؟ مثل هذا الاعتراض له ما يبرره إذا علمنا أن الحضارة تولد مرتين أما الأولى: فميلاد الفكرة الدينية والثانية تسجيل هذه الفكرة في الأنفس أو تدوينها في أحداث التاريخ؛ وإذا كانت المدنية الإسلامية قد جمعت المولدين في آن واحد فإن ذلك يعود إلى الفراغ الذي وجدته الفكرة الإسلامية في النفس العربية العذراء، إذ لم تنشأ فيها ثقافة ولا ديانة سابقة فخلا لها بذلك الجو، على عكس المسيحية التي نشأت في وسط هذا الخليط من الديانات والثقافات، فلم يتح لها الدخول إلى قلوب الناس وسط هذا الزحام، ولم يكتب لها أن تعمل عملها، إلا عندما بلغت وسط البداوة الجرمانية في شمال أوروبا حيث وجدت النفوس الشاغرة فتمكّنت منها وبعثت فيها الروح الفعالة التي اندفعت بها لتكوّن حلقتها في سلسلة التاريخ. وهذا ما يؤكده المفكر "هرمان دي كيسرلنج" في كتابه البحث التحليلي لأوروبا" حيث يقول "مع الجرمانين ظهرت روح خليفة سامية في العالم المسيحي، وما يقصده بالروح السامية ليس إلا الفكرة المسيحية المتأهبة لدخول التاريخ" (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص55). دورة الحضارة إذن تتم على هذا المنوال، إذ تبدأ عندما يدخل التاريخ فكرة دينية محددة أو عندما يدخل التاريخ مبدأ أخلاقي معين كما أنها تنتهي حينما تفقد الروح نهائياً الهيمنة التي كانت لها الغرائز المكبوتة أو المكبوحه الجماع. ودور الفكرة الدينية وأهميتها تكمن في قدرتها على جعل سلوك الانسان قابلاً لإنجاز حضارة، وأكثر من ذلك قدرتها من الجانب النفسي على إعطاء القوة التي تُمكن من مجابهة الصعاب" (مالك بن نبي، 1986، ص70-71). "إنها تمنح الوعي بهدف فتصبح الحياة معه ذات دلالة ومعنى. والمطلع على أحوال الجزيرة العربية قبيل نزول القرآن يدرك جيداً مثل هذه الحقيقة، إذ لم يكن يقطنها سوى شعب بدوي، يعيش في صحراء مُجدبة، يذهب وقته هباء لا ينتفع به، حتى إذا تجلّت الروح بغار حراء نشأت بعد أن تفاعلت عوامل عديدة حضارة جديدة (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص51). وجملة القول أن الوسيلة إلى الحضارة متوفرة مادام هناك فكرة دينية. دورة الحضارة الإسلامية إذن بدأت بفكرة دينية روحية، وانتهت حين فقدت الروح فعاليتها في السيطرة على الغرائز الحيوانية عند الإنسان في جميع مجالاته الحياتية؛ ومن ثم كان أفول نجم الحضارة الإسلامية بسبب استعادة الغرائز سيادتها على الإنسان، وبالتالي لا يسعنا إلا أن نعيد ذكر القانون الذي عبّرت عنه حكمة الرسول من خلال حديثه الشريف، القاضي بأن صلاح آخر الأمة، لا يكون إلا بما صلح أولها(مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، 1985، ص70).

## 4.3.5 أسس قيام الحضارة حسب بن نبي :

ما تحتاج له الحضارة في بدايات تكوينها ليس رأسمال كما يظن البعض بل كل ما تحتاج له هو رجل فطرة يريد أن يصير رجل حضارة ويُحقق ذاته عبر التاريخ، فالرغبة والإرادة تعد أهم عامل، بل وتُعد العامل الأساسي في معادلة الحضارة، فعن طريق هذه الإرادة يمكن توجيه كل قوة الإنسان نحو الهدف المنشود وهو تحقيق النهضة، والنهضة تحقيقها مشروط بتفعيل العوامل الثلاث والمتمثلة في : إنسان + تراب + وقت"، إذ هي ثروته الأولية " لذلك وجب إقامة عملية حسابية من أجل حلها بدل تكديسها، أي البحث عن استيرادها من مكان آخر، فالحضارة هي التي تلد منتجاتها وليس العكس" وسيكون من السُخف والسخرية حتماً أن نعكس هذه القاعدة ، حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها( مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 42). يجب توحيد كل الجهود من أجل حل المشكلات الثلاث من أساسها. " من البين أن العالم الإسلامي يعمل منذ نصف قرن على جمع أكوام من منتجات الحضارة أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة، وهذا فمثل هذه المشاريع تتوجه نحو التكديس بدل البناء" ( مالك بن نبي، 1986، ص 44). إنها كمن يريد أن يُطلب من سجان إعطائه مفاتيح سجنه!.

إن أهم صناعة يمكن أن نشغل عليها هي فن صناعة الإنسان، أما المادة فمهما كان مقدارها وقيمتها تبقى مجرد كم مكس، لا يمكن أن تثمر حضارة إلا بالاستعمال الصحيح لها من قبل الكائن الإنساني. ولذا لا بد من نقطة البدء، أي التغيير النفسي ليصبح الإنسان غنيا بأفكاره لا بأشياءه وذلك هو الأهم وهو رأسمال الأمة لذلك وجب علينا أن نصنع رجالاً يمشون في التاريخ مستخدمين التراب والوقت والمواهب في بناء أهدافهم الكبرى" ( مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 75). " وصناعة الإنسان هنا منوطة بتوجيهه في نواح ثلاث، ثقافته وعمله ورأس ماله .

## التوجيه الثقافي:

الثقافة هي روح الحضارة وهي الحامل الذي يحملها، ذلك أنها تُمثل شخصية رجل الحضارة ورأس ماله، و المقصود بالثقافة هنا " مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يلقاها الفرد عند ولادته كرأس مال أولي في الوسط الذي ولد فيه، أي المحيط الذي يُشكل فيه الفرد طباعه وشخصيته. وتبعاً لذلك وجب علينا من أجل صناعة الانسان أن نقوم بتوجيه مجموعة الصفات الخلقية، والقيم التي يتلقاها الفرد منذ ولادته ، وتصفيها من كل ما يشوبها من عوامل الانحطاط. إن عودة الثقافة لممارسة وظيفتها الحضارية منوطة بتنظيف الموضوع من الحشو أو الانحراف الذي أحدثه فيه عدم فهمنا لموضوع الثقافة" ( مالك بن نبي، 1986 شروط النهضة، ص 83). إن الثقافة هي التاريخ ولا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، وتبعاً لذلك فالشعب الذي فقد ثقافته يكون قد فقد حتماً تاريخه، إن الثقافة هي التي تُغذي التاريخ، وهي التي تغذي الحضارة. " إن قضيتنا منوطة بذلك التركيب الذي من شأنه إزالة التناقضات والمفارقات المنتشرة في مجتمعنا اليوم، وذلك بتخطيط ثقافة شاملة يحملها الكل، حتى يتم للأنفس استقرارها وانسجامها مع المجتمع الذي سوف يكون قد استوى على توازنه الجديد ( مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 159).

## التوجيه الاقتصادي:

### أ- توجيه العمل:

يعني به "مالك بن نبي" سير الجهود الجماعية في اتجاه واحد، وذلك بأن يضع كل واحد لبنة جديدة في البناء، وهكذا جيلاً بعد جيل، حتى تكون هناك استمرارية، تضمن سيراً سليماً للإنسان في طريقه نحو تجاوز أزمة حضارته، والحفاظ عليها بعد تحقيقها، ولتحقيق هذه الغاية وجب توجيهه من الناحية التربوية لا من الناحية الكسبية، بمعنى أن تنتشر روح "تقديس للعمل"، بحيث يكون موجهاً لأهداف تربوية وأخلاقية، عقّدية وحضارية، فيكون في نهايته جهد نحو تحقيق الإنسان لإنسانية من خلال توقيع ميثاق حضوره والسعي نحو تشييد حضارته وبهذا يتحقق المبتغى (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 107).

### ب- توجيه رأس المال:

ويكون ذلك بتحريك أموال الأمة مهما كانت بسيطة، قصد إيجاد حركة ونشاط تُوظف فيه الأيدي والعقول لبناء حياة اقتصادية، تضمن انسجام مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد، أي تحقق العدل بين الطبقات في المجتمع (مالك بن نبي، شروط النهضة، 1986، ص 85)؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى الاستثمار المالي حسب بن نبي ليس هو الحل الأمثل للنهوض بالعالم الإسلامي والمتمثل في جلب قروض لا تفيد هذا العالم في شيء بل على العكس من ذلك قد تضره وتقيد نموه وتطوره، ولكن الحل يتمثل في الاستثمار الاجتماعي، ويكون ذلك بأن نستثمر ما نستطيع بالوسائل الموجودة في أيدينا، ووسائلنا بلداننا التي تمكّنا من الإقلاع الاقتصادي. إن الإقلاع الاقتصادي مرهون بتحديد الوسائل والسبل التي تُحقق الهدف، وليس المهم أن نستثمر بوسائل الغير، بل لابد من أن نستثمر بما يوجد في أيدينا فعلاً، فأي مشروع نفكر فيه بأفكار الآخرين، ونحاول إنجازه بوسائل غيرهم معرض لا محالة للفشل؛ " (مالك بن نبي، 1986، ص 108).

كخلاصة لما سبق لا يسعنا إلا أن نقول بأن النهوض بحضارتنا من جديد يتطلب أن نكون فاعلين، وذلك بأن نرجع الأجيال في تربيتها إلى أصلها الأول المتمثل في الفكرة الدينية لتكون حاضرة في أقوالها، وأفعالها، وأعمالها، وبصناعة الإنسان الحامل للحضارة نكون في الطريق الصحيح. إذ سيحمل على عاتقه مهمة استغلال وقته وجهده وترا به من أجل ترك الأثر المحمود الذي خلق لأجله، العبادة والخلافة في الأرض، إن الحياة ما نصنعه منها، وإذا لم يكن هناك أثر، فسيكون كمن لم يمر، لا أثر، ولا حدث.

## 6. كيف تفاعلت الأمة مع مشروع مالك بن نبي؟

كان حتماً على رجل المنهج أن يستخدم الضوابط لهذه التطورات، فيطرح ما علق بها من أوهام ترتبط بالبنية الفكرية للإنسان المتخلف في العالم الإسلامي والعالم الثالث على العموم، ويأخذ الذي يثري مبادرات التغيير والتطور بتجربة فتية راهنة " (مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، 1986، ص 08). وبذلك فالأستاذ مالك بن نبي يدعو العالم الإسلامي والدول الإسلامية إلى تجربة تستمد معطياتها من واقع المشكلة، بعد تحليل عناصرها دون التأثير بالمفاهيم

التي زرعها الحضارة المعاصرة في أفكارها وأسدت ستارها على أبصارنا. لذلك نجده يدعو إلى علم اجتماع مستقل يختص بمشكلات العالم الثالث بعد تحقيق الاستقلال السياسي (مالك بن نبي، بين الرشاد والتهيه، 1986، ص 10).

يعد مالك بن نبي في نظر الباحث الوحيد من بين المفكرين العرب والمسلمين الذي خرج عن السرب إن صح التعبير؛ فطريقة تفكير الرجل تختلف اختلافاً تاماً، إن لم نقل جذرياً عن المفكرين الذين اشتغلوا على السؤال الذي طرح منذ ما يقرب القرنين. ولا يقترب منه في تاريخنا كعرب ومسلمين إلا العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، من حيث نظرتهم الكلية للظواهر الاجتماعية والسياسية والأخلاقية، وربما حتى في الطريقة العلمية إلى حد ما في معالجة هذه الظواهر، ولسنا هنا بصدد تبيين أفكاره ولا إعطائها مشروعية، فقط الذي نريد إثارتته سؤال يطرح نفسه علينا كباحثين وأساتذة ودارسين لمشروع النهضة ومشكلة الحضارة العربية والإسلامية، وهو ما مدى حضور مالك بن نبي في راهننا كعرب ومسلمين، أمس واليوم؟ ما الذي استفدناه من المشروع الحضاري لمالك بن نبي؟ هل وحدنا جهودنا بحيث جعلناها تسير في اتجاه واحد، نحو بعث الإنسان العربي والمسلم من جديد وإخراجه من سباته الطويل، وشق الطريق به نحو الحضارة المنشودة، هل حاولنا فهم أنفسنا بأنفسنا دون الانسياق وراء الظاهرة الغربية! هل حاولنا تخلص ثقافتنا من الشوائب التي لحقتها، هل وضعنا خطاً من أجل تطوير الاقتصاد والزراعة، هل امتلكننا الرغبة في تغيير أوضاعنا؟

إن واقع أمس واليوم، يؤكد بلا مجال للشك، أن الذي سبق ذكره لم يحدث؟ إن الأمر لا يتعلق بالمحاولة والفشل، إن الأمر بدا وكأنه لا يعني، أو كأننا أصبحنا مكتوفي الأيدي، أو كأننا لا نريد، وربما الأدهى من ذلك أننا استسلمنا!

لماذا لم نستفد من مشروع مالك بن نبي؟ هل أصبحت أفكاره مُتجاوزة؟ هل عفا عنها الزمن، فأصبحت من دون معنى؟ لكن أين هو المعنى، هل واقعنا كعرب وكمسلمين يحمل في طياته دلالات ومعنى، هل نحن من فقدنا المعنى، فقدنا بوصلتنا وأضحينا وللأسف لا نفرق بين ما يحمل معنى وما لا يحمل معنى! ماذا بعد بن نبي؟ هل وضعنا طريقاً آخر وسرنا جميعاً نحو تحقيقه؟ هل نحن نمتلك الرغبة بآبن نبي أو بدونه! إن الأمر يبدو على العكس من هذا؟ حال العرب والمسلمين في تدهور وربما أسوأ من ما مضى؟.

إننا اليوم أمام حتمية وضرورة مواجهة أنفسنا بالحقيقة، ووضعها موضع النقد والتساؤل. كيف يمكن أن نتجاوز أزمة العالم الإسلامي. هذا السؤال أو الإشكال ينبغي أن نجد له إجابة سواء من خلال ابن نبي أو من خلال غيره.

### قراءة في المشروع الحضاري لمالك بن نبي.

سنحاول في هذا العنصر دراسة المقدمات والنتائج التي انتهى إليها الأستاذ مالك أثناء معالجته لأزمة الحضارة الإسلامية، وسيكون ذلك من خلال طرح بعض الأسئلة ومحاولة الإجابة عليها وهي كالتالي:

- إلى أي مدى وُفق مالك بن نبي في مشروعه؟ ماذا يمكننا أن نستفيد منه؟ وما يمكن أن يحسب عليه، والذي يمكن أن نستفيد منه عن طريق تجاوزه؟

ولمناقشة كل ذلك والاستئالة التي سبق ذكرها، أردنا أن نعود إلى السؤال المحوري : لماذا تقدم غيرنا وتأخرنا

نحن؟

وعودتنا لهذا السؤال الغاية منها إبداء رأينا فيه أولاً، ومناقشته في ضوء ما انتبى إليه بن نبي ثانياً.

في سؤال لماذا تقدم غيرنا وتأخرنا نحن ؟

ولا نقصد بهذا السؤال ما كتبه شكيب أرسلان، بل المقصود كل الأطروحات والمشاريع التي طرحت منذ بداية الصحوة كما ذكر بن نبي، والتي ابتدأت بحملة نابليون من جهة، والبعثات العلمية من جهة أخرى، إذ في رأي الباحث وإن كان هناك اختلاف في طرح السؤال إلا أنه يدور كله في فلك واحد.

من الواضح أن سؤال النهضة لم يطرح إرادياً، بمعنى أنه لم ينبع من الداخل، بل كان نتيجة. كيف ذلك؟ السؤال طُرح تزامناً مع وصول حملة نابليون بونابرت. بعد أن وقعت أعين المسلمين على الحداثة الغربية بمظاهرها وانجازاتها، فكان أن انهزم بها، إذ وجد المسلمون أنفسهم آنذاك بعيدون كل البعد، مقارنة بما وصل إليه العالم الغربي، فهو كان قد قطع خطوات كبيرة، ونتيجة لذلك الانهيار طرح السؤال. ولا شك أن سؤال النهضة بهذه الطريقة في نظرنا يسير في الاتجاه الغير السليم، فسؤال النهضة لابد وأن يكون نابعا من الداخل، أي أنه حالة وجدانية نعيشها وليس سؤالاً جافاً يُطرح، إنها تورقه وتدفع به لمحاولة تغيير الوضع الذي هو فيه. نتيجة إدراكه بأن نمط عيشه لا يعبر عن ماهيته.

إن الذي ينهض لابد وأن ينهض بنفسه، ولا معنى لمن ينهض بمساعدة غيره، إذ أنه سيبقى مرتبطاً به كلما احتاج للنهوض، لا معنى للنهضة اذا لم ينهض الواحد منا بنفسه، لذلك نقول نهضتنا مشروطة بأن نحققها بأنفسنا لا من خلال غيرنا.

- نعود لسؤال لماذا تقدم غيرنا وتأخرنا نحن ؟

- طرح السؤال بهذا الشكل فيه مغالطة. كيف ذلك ؟

- لماذا تقدم غيرنا ؟ إذا كان المقصود بغيرنا " الغرب"، فالسؤال المطروح: هل تقدم الغرب ؟ وفي أي مجال كان

تقدمهم ؟ أم أن التقدم شمل جميع الجوانب !

لاشك أن الحداثة الغربية قامت في بداياتها على أساس إعادة اعتبار قيمة "الإنسان" وإحلال مركزيته، وكان نتيجة لذلك أن حَققت تقدماً نحو فهمها للطبيعة، لكن في الجهة المقابلة ونتيجة لإحلال مركزية الانسان أيضاً، كانت هناك نتائج معاكسة، إذ كان أن تمَّ إلغاء بعمد أو غير عمد فكرة "الله"، أو لنقل همَّشت فكرة الله بعد أن منحت للإنسان مساحة أكبر من الحرية، وبذلك كانت النتيجة أن تطورت الأوضاع بعد حدوث تراكمات كثيرة، فكان أن فقدت الحداثة الغربية القيمة أو المعنى، وأصبحت الحداثة الغربية تعاني من أزمة القيمة نتيجة إعلائها وبشكل مبالغ فيه لقيمة الانسان، وبذلك دخلت أزمة أخلاقية ناتجة عن أزمة قيمية، وأصبحت ظاهرة تهدد كيان الأوروبي، بعد أن كانت تشكل خطراً على غير الغربي، إذ أحدثت داخله رجّة، أثّرت بشكل كبير على نمط حياته وعيشه.

ونحن هنا لا نريد أن نناقش هذا الموضوع؛ فقط الذي نريد قوله، أن التسليم بتقدم غيرنا، حكم نحتاج اليوم لإعادة النظر فيه. إن التسليم بأن الآخر سائر نحو التقدم يجعلنا نقع في الخطأ، حين نجد أنفسنا ننخدع، فنتجه طواعية أو عن غير طوعية لمحاولة فهم أنفسنا من خلال الآخر.

ضف إلى ذلك حتى في الحالة التي نُسلم بأن الغرب سائر نحو التقدم، لا شيء يدعونا للشك أن ما يتقدم به غيرنا ليس هو نفسه ما نتقدم به نحن، إلا في حالة واحدة وهي أن يكون الذي تقدّم به الغرب يخص الإنسان الكلي، وليس الإنسان الغربي.

إن الذي أفرزه التاريخ أن الغرب لم يتقدم كما نظن، بل إنه يعيش أزمته بشهادته الغربي نفسه، وكما ذكر بن نبي، إذ الأزمة لم تكن بادية للعيان في البدايات، بل أفرزتها تراكمات كثيرة.

ما يهمنا حتى اللحظة، الغرب لم يصل للنهاية، أو لم يصل إلى الحقيقة لا الخاصة به، ولا الخاصة بالإنسان ككل حتى نفتفي أثره وهذا بشهادة الغربي نفسه.

وعليه لا ينبغي طرح سؤال لماذا تقدم غيرنا وتأخرنا نحن ؟ إذا أردنا أن نطرح السؤال فالسؤال ينبغي أن يكون كالتالي: أين نحن من التاريخ ؟ ماهي المرحلة التي نحن فيها ؟ بعد تحديدها، نبدأ البحث عن العلاجات حسب الحالة التي نحن فيها.

أليس هذا ما أراد مالك قوله بطريقة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، أليست هذه جُل آرائه، بداية من إقراره بأزمة العالم الغربي، وتأكيده على ضرورة البحث بطريقة منهجية عن حلول لأزمته من خلالنا نحن، وهذا عن طريق البحث في التاريخ عن العوامل المؤثرة في سيروية الحضارة والعوامل التي تساهم في سقوطها، لماذا تعرّض المشروع الحضاري لمالك بن نبي للإهمال !

لو أردنا أن نُجوز لأنفسنا ونحاول أن نضع مشروع مالك بن نبي موضع التقييم، ما الذي يمكن أن نقدمه كملاحظات على المستويين المعرفي والمنهجي:

- من الناحية النظرية؛ ما انتهى إليه بن نبي من خلال مشروعه بشقيه مُبرر ومقبول.
- أهم ما يميز مشروع مالك هو الأدوات المنهجية والمعرفية التي حلّل بها مقولات الطروحات والمشاريع التي قدّمها العقل العربي والإسلامي.
- دعوته للبحث عن حلول جذرية وكلية لأزمة العالم الإسلامي ومشكلة حضارته من خلال عقل كلي، لا يتناول القضايا الجزئية.
- سعيه لإقامة الحضارة على أسس سليمة، من خلال تأكيده على وجوب معرفة كيف تشيد الحضارة، لمن أراد بلوغها.
- دعوته إلى علم اجتماع مستقل يهتم بدراسة إنسان ما بعد الاستعمار.
- الاشتغال على الإنسان بوصفه المادة الأساسية لتشييد الحضارة، وذلك من خلال الاهتمام به من جميع الجوانب ليكون قادراً على حمل الحضارة.

ولم يتوقف بن نبي عند الدعوة، بل قدّم مشروعاً عالٍ فيه مجموع هذه النقاط بالتفصيل، وهو ما حاولنا شرحه قدر الإمكان في هذه الأوراق البحثية. لكن الملاحظ أن المشروع السنّي لبن نبي تعرّض للنسيان والإهمال! فلماذا حدث ذلك يا ترى ؟

هل الإهمال الذي تعرّض له مشروع بن نبي، معناه فشله !؟

لأنه وفي الحالة التي يفشل الطبيب في مداواة المريض، لا يمكن أبداً أن نلوم المريض، لأننا كمن يتهم لا شيء، الفشل يقع على عاتق الطبيب، والمطلوب في مثل هذه الحالة على الطبيب أن يعيد إنتاج آليات جديدة وخطاب جديد يحاول من خلاله البحث عن علاج للمرض الذي استعصى عليه في البداية.

هل نحن هنا نتهم بن نبي ؟!

نعود لنقول : من الناحية النظرية ما ذكره بن نبي هو ما ينبغي أن يكون ، لكن لو أردنا أن نحلل مقولات وطروحات الأستاذ مالك من خلال ما هو واقع لأمكننا القول:

إن مشروع بن نبي يقوم على نقطة أساسية وهي بناء وصناعة الإنسان الذي يستطيع أن يكون حاملاً لثقل الحضارة، صناعة الإنسان بجميع أبعاده، اجتماعياً، سياسياً، أخلاقياً ثقافياً، دينياً. هذه هي الفكرة الجوهرية لمالك بن نبي، لكن السؤال المطروح ، ليست المشكلة اليوم مشكلة تنظير في نظر الباحث، أي إعطاء الحلول، بل المشكلة هي كيف يمكن أن نتقل بهذا المشروع من النظر إلى التطبيق، أي كيف تتم صناعة الإنسان القابل لإنجاز الحضارة، ونحن نعيش أزمة سياسية، إن صناعة الإنسان مرهونة بصناعة الدولة، فهي التي من المفروض أن تسهر على صناعة الإنسان الحامل للحضارة - وهنا نستحضر ما ذكره روسو وهو الذي صاغ مشروع بناء دولة من خلال كتابه الرئيس "العقد الاجتماعي" لو كنت سياسياً لما تكلمت بل لصنعت - لكن المشكلة التي هي أماننا أن مفهوم الدولة في الوطن العربي لم يتحقق بعد، بمعنى أننا عجزنا عن تأسيس دولة ديمقراطية تشاركية، وما أحداث الربيع العربي إلا ترجمة لهذا الصراع بين طموحات الفرد العربي، وبين ما هو واقع من استبداد وخنق للحريات وفوضى سياسة واقتصادية. من يصنع من ؟ هل نصنع الدولة أم نصنع الإنسان؟ وكيف نصنع الدولة ! هل سننتظر أن تتحقق دولة القانون والعدالة، ونحن لم نهتم بصناعة الإنسان كما أراد بن نبي، أليس الواجب صنع الإنسان أولاً وقبل كل شيء، وبصناعة الإنسان تتحقق دولة العدالة والمساواة التي نبغها. لكن السؤال المطروح حتى الآن كيف يمكن صناعة الإنسان، في ظل غياب دولة القانون والعدالة التي تحمل على عاتقها هم نقل المشروع النظري إلى الواقع ؟

من يصنع الإنسان القابل للحضارة في مثل هذه الحالة ؟

هل سنترك الأمور للزمن : بمعنى أن تطور الوعي سيمر على مراحل صعوداً ونزولاً حتى يصل إلى المبتغى، وهو عودة الإنسان لذاته واكتشافه لها. أم أن الواجب يقتضي كما ذكرنا، النزول إلى الواقع وتفكيك العقل العربي من أجل إعادة صياغته ليشغل بطريقة سليمة .

إننا بحاجة اليوم إلى دراسات سوسيولوجية وسيكولوجية وأنثروبولوجية تخص العقل العربي والإسلامي، نحاول من خلالها الحفر في وعيه، من خلال الاتجاه إلى الواقع ودراسة التاريخ ، غاية سبر أغواره - وهذا هو نفسه

الذي دعا إليه بن نبي، حين أكد على ضرورة إنشاء علم اجتماع مستقل بعد أن تمّ تحقيق الاستقلال -ان تفكيك العقل العربي والإسلامي غاية الكشف عن تركيبته، وطريقة تفكيره، ثم محاولة إعادة صياغته، ووضعه في قوالب سليمة، هو الكفيل في نظر الباحث لتحقيق المراد، وهو تهيئة الأرضية الخصبة التي يمكن غرس الإنسان القادر على حمل الحضارة فيها.

إن العالم العربي والإسلامي يعاني على أصعدة متعددة، وواجبنا اليوم كمثقفين وكأساتذة وكباحثين، أن نعيد مراجعة أنفسنا والبحث عن أدوات جديدة يمكن من خلالها فك شفرات هذه الأزمة. فالكثير من المتغيرات قد تبدلت، إن القضايا التي تطرح نفسها اليوم في راهن العالم الإسلامي والعربي والتي أصبحت تثير قلقه، لم تعد كما من قبل أي البحث عن حضارة إسلامية، لقد انحسر الحديث في هذا الموضوع، مشكلة العالم الإسلامي والعربي، أصبحت مرتبطة بالمواطنة، بالعيش المشترك، فالتميش والإقصاء وغياب العدالة ودولة القانون، أصبح السمة البارزة في أغلب الدول العربية، ولعل أحداث الربيع العربي قد فجّرت كل شيء فأخرجت كل ما في أحشائه، إن النتائج التي انتهت إليها العالم العربي بعد أحداث الربيع العربي قد وجّهت نظره وفكره إلى طرح أسئلة جديدة، إذ أصبح مطلبه الأول هو العيش في دولة القانون والمواطنة التي تضمن له العيش الكريم. هذا هو الواقع العربي اليوم وهذه أهم الأسئلة التي فرضت نفسها عليه .

من هذه الزاوية هل يمكن أن نبرر إلى حد ما – لأن الأمر لا يبرر- الإهمال الذي تعرّض له المشروع الحضاري لبن نبي، هل ابن نبي في ظل الوضع الراهن أصبحت أفكاره وطروحاته لا تعبر عن آمال وتطلعات العربي والمسلم اليوم، الذي أصبح يريد فقط العيش بكرامة؟!

## خاتمة

ماذا يمكننا أن نقول كخلاصة للموضوع؛ مالك بن نبي وغيره من أساتذتنا قدموا ما استطاعوا، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، لكنهم أبدأ ما بدلوا تبديلاً؛ كانوا رساليين حين سخرُوا كل جهودهم غاية تغيير أوضاع العالم الإسلامي إلى الأحسن، لكن السؤال المطروح أين نحن منهم ومن سؤال حضارتنا! إلى أين تمضي الأمور؟ هل نحن نتجه إلى الجحيم، هل نحن نتجه للأسوأ؟ ماذا قدمنا للتاريخ حتى يشفع علينا؟ أين هو الحل في الوضع الراهن! إن التاريخ والمنطق يجعلنا نقر بأن النهوض بعد السقوط آت لا محالة، إن التاريخ يشهد على أن الوصول إلى المبتغى يتطلب الكثير من التضحيات والتراكمات، الوصول لن يكون أبداً دفعة واحدة، هذه التراكمات تكون صعوداً ونزولاً حتى يأتي اليوم الذي ينبلج فيه النور.. إن النور آت لا محالة؛ فقط، لا ينبغي أن تجعلنا الأخطاء نضعف، أو أن نتهم بعضنا البعض، أو ننكر بعضنا البعض، لأن هذا لن يكون أبداً في صالحنا، إن الوقت ليس مناسباً البتة لكي ننقلب على أنفسنا، فهذا ما تريده الأزمة منا، إنها لا تكتفي بأن تعبت بنا، بل فوق ذلك تريد أن تضربنا بعضنا، أن تكون الأزمة هي عدونا أهون بكثير من أن نكون أعداء لبعضنا البعض... إن واجب اليوم يفرض علينا أن نثق في أنفسنا، وأن لا نفقد الثقة في بعضنا البعض.. وأن لا نقع فريسة للواقع الذي ينهشنا. لأننا لن نستفيد تماماً، بل سنكون الخاسر الأكبر، أن واجبنا اليوم، أن يحاول الواحد منا، كل من مكانه وبالطريقة والكيفية التي يستطيع، أن يبذل قصارى جهده غاية

إعادة عجلة حضارتنا للدوران، إن الواجب يقضي علينا نؤمن بأنفسنا وأن نهبها، غاية تحقيق المراد. إيماناً منا بأن الخير في أمة محمد باق إلى يوم الدين.

نعود لنقول، حضور بن نبي اليوم في واقعنا اليوم، مرتبط ومن دون شك بمدى المجهود الذي يمكن أن نبذله غاية تنمة مشروعه والمضي به قدماً، وهذا من خلال الالتفاف حوله ومحاولة نقل فكره من مستوى النظر إلى الواقع، وذلك عن طريق التوجه نحو علم اجتماع مستقل كما دعا إليه – لأننا اليوم في أمس الحاجة وربما أكثر من أي وقت مضى لمثل هذه النوع من الدراسات- هو نفسه خاصة في كتابه "ميلاد المجتمع"، هذا الكتاب الذي نراه حقيقة مُهم ويستحق المزيد من الدراسة والتحليل ولما لا التطوير. نعود لنقول إن أهم شيء يمكن أن نستفيد من بن نبي اليوم، أن نحاول أن نستعمل الأدوات المنهجية والمعرفية التي قدّمها وصاغها لنا من أجل تفكيك وتحليل، بل وإقامة دراسة سوسيولوجية وأنثروبولوجية تهتم بالعقل العربي والإسلامي غاية فك شفراته، هذا ما يتوجب علينا الاشتغال عليه مستقبلاً إذا أردنا أن نبرح مكاننا فما علينا إلا أن نُكرس جهدنا ليبقى الأستاذ بن نبي وغيره من أساتذتنا أحياء فينا.

## قائمة المراجع

### قائمة المصادر

1. بن نبي، مالك، (1986)، الظاهرة القرآنية، تر: عبد الصبار شاهين، ط4، دمشق، دار الفكر.
2. بن نبي، مالك، (1986)، شروط النهضة، تر: عبد الصبار شاهين، د.ط، سورية، دار الفكر.
3. بن نبي، مالك، (1986)، بين الرشاد والتهيه، تر: عبد الصبار شاهين، ط1، دمشق، دار الفكر.
4. بن نبي، مالك، (1985)، ميلاد مجتمع، ج1، تر: عبد الصبار شاهين، د.ط، دمشق، دار الفكر.
5. بن نبي، مالك، (1986)، وجهة العالم الاسلامي، تر: عبد الصبار شاهين، ط1، دمشق، دار الفكر.

### قائمة المراجع :

6. عابد، محمد الجابري، (1990)، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، ط2، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
7. نجيب محمود، زكي، (1971)، تجديد الفكر العربي، د.ط، بيروت، دار الشروق.
8. حوراني، ألبرت، (1986) الفكر العربي في عصر النهضة، تر: كريم عزقول، د. ط، بيروت، دار النهار للنشر.

### المواقع الإلكترونية:

- 1) بن نبي، مالك. مفهوم الحضارة والنهضة، اطلع عليه بتاريخ (2018/11/03)، على الرابط التالي:

[www.youtube.com/watch?v=RLGkapi4YM](http://www.youtube.com/watch?v=RLGkapi4YM)